

ولو لاه لكانوا من الضالين؟ وإلى أى جديد يدعون؟ إلى جديد قوامه ما عند اسلف من علم ورأي، أم إلى جديد قوامه الزيغ والإلحاد والخروج على الدين والتنكر للنصوص والأصول؟ فإذا قال قائل: أن للجديد ميادين لم يُجل فيها القدماء ولم تخطر لهم على بال، وقد عرفها العلم الحديث والفن الحديث، وظهر من آثارها ما نعمنا به ونعم به العالم من مخترعات وعجائب، قلنا ذلك حق ما فيه ريب، ولكن ذلك نقل الكلام إلى موضوع آخر، فانما نريد الموازنة بين القديم والجديد فيما اشترك فيه القديم والجديد لا فيما انفرد فيه أحدهما. إن هؤلاء القدامى قد فعلوا الأعاجيب، وإن حياتهم العلمية ومثابرتهم وطول صبرهم وأناتهم لجديرة بكل ثناء وتمجيد وإكبار.

إننا لو نظرنا إلى محصول على لأحد العلماء القدامى مثل الرازي أو البخاري أو ابن كثير أو ابن منظور المصري أو النووي أو ابن تيمية أو ابن القيم أو المرتضى أو الطوسي أو نصير الدين أو أمثالهم من الذين تزرع المكتبة الإسلامية بآثارهم، لعلمنا بصورة واضحة نسبتنا إليهم، ولمسنا مقدار فضل الله عليهم في ربطه على قلوبهم وتوفيقه إياهم إلى ما قاموا به من عمل باهر، وما تركوا من أثر خالد.

أن تفسير القرآن الكريم المسمى: "مفاتيح الغيب" وهو أحد الآثار العلمية القيمة الخالدة للامام الرازي يقع في ثمانية أجزاء، يحتوى كل جزء منها على نحو ثمانمائة صفحة، وليست الصفحة في هذا الكتاب كصفحة صغيرة من الكتب اللطيفة التي تنشر اليوم، وإنما هي صفحة لو وزعت على أمثال هذه الكتب لمئات عدة صفحات، ففيها أكثر من ثلاثين سطرا في كل سطر أكثر من خمس عشرة كلمة، فهو أذن محصول ضخم في مادته وقيمته، وهو على ذلك أحد الآثار - كما قلنا - لرجل واحد ربط الله على قلبه، فحبب إليه العلم والبحث والكتابة والتأليف، على الفقر والتقصير ومجافاة مطالب الحياة، ويرى القاريء في هذا التفسير في آخر تفسير سورة يوسف (ص 258 من الجزء الخامس) ما نصه: "قال